حظى بالشىء ...

لأستاذ جليل

الرافعي ، المجمع اللغوى ، أزهرى
المنصورة ، اليازجى ... ...

— ٣ —

ردّ الأستاذ الرافعي (رحمه الله) فى (البلاغ ٢٨ شوال ١٣٥٢) على الأستاذ أزهرى المنصورة (البلاغ ٢٦ شوال ١٣٥٢) فقال :

« عاد الفاضل أزهرى المنصورة إلى هذا الفعل وجاءنا بدليلين آخرين من استعماله فتمت حججه أربعا أحصاها هو بقوله : (١) — أوردنا بيت الحماسة .. (٢) — وجئنا بكلام الأساس .. (٣) — وجاء فى نهج البلاغة : (وحظوا من الدنيا بما حظى به المترفون) على تأدية الخراج ، وعلى سدّ جشعهم فى جمع الثروة الضخمة حتى لا تسوزهم الحاجة بعد عزلهم ، الذى كانوا يترقبونه فى كل وقت ؛ مما أدى فى كثير من الأحيان إلى انتفاض الأمة ، وقيام الثورات فى عهد بنى أمية وبنى العباس . وليس أدلّ على عناية الخلفاء باكثار الخراج من أن عبدالله بن سعد بن أبى سرح لما جبى خراج مصر وبلغ ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار بعد أن جباه عمرو ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، عيّر عثمان بن عفان عمرا بقوله : « إن اللقاح بعدك درّت ألبانها » فأجابه عمرو « .. لأنكم أعجفتموها » مما يدلّ على أن سياسة الخلفاء نحو جباية الخراج كانت تميل إلى الشدّة ، وعلى الأخص فى عهد بنى أمية وبنى العباس ، على أن خراج هذه البلاد أخذ يقلّ بعد عمرو وابن أبى سرح حتى إنه لم يبلغ زمن الأمويين والعباسيين ثلاثة ملايين[1] إلا مرات معدودات حتى اضطر بعض الولاة إلى وضع الجزية على من أسلم

محمد ابراهيم محمد

(١) يظهر من أقوال المقريزى (خطط : ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠) أن الخراج فى هذه المدة كان جلّه — إن لم يكن كله — عبارة عن ضرائب الأطيان ، فقد بلغ فى عهد هشام بن عبد الملك أربعة ملايين ، وفى خلافة سليمان بن عبد الملك اثنى عشر مليوناً ، وفى عهد ابن طولون أربعة ملايين وثمانمائة ألف دينار ، وبلغ فى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون أربعة ملايين

(٤) — وجاء فى مقامات الحريرى : (نهضا وقد حظيا بدينارين) وعجيب جداً أننا لم نجد أحداً يتنبه إلى مدار الحجة أو يفطن إلى وجه النقد . على أننا أومأنا إلى شىء ، وعرضنا بشىء ، وقلنا : إن لهذا الفعل (حظى) تاريخاً اجتماعياً وأن هذا التاريخ هو الذى يعين للكلمة ظاهرها الظاهر وباطنها الباطن . وكان فى هذا كاف أن يدرك من يدرك أن فى اللغة ألفاظاً أخذت من معنى بعينه ، ولا يستعمل إلا فيما هو بسبب من هذا المعنى

أما بيت الحماسة فقد قلنا إن حظي فيه مضمنة معنى (ظفر) فهى هذه لا تلك وبطل الاستدلال بالبيت . ونقول مثل هذا فى كلمة الحريرى وإن كان الشريشى قد فسرها بمعنى (سعد) وهو المعنى العامى الذى شاع به الكلام فى العصور المتأخرة . فيقولون : حظينا بلقاء فلان ، وحظينا بتشريف فلان . وأكثر ما كان هذا الاستعمال فى البلاد التى يسفها الحكم التركى ، ولهذا كانت فاشية فى سوريا[1] حتى لا عامى ولا خاصى هناك إلا وهى فى لسانه وبخاصة الجرائد

وأما كلام صاحب الأساس فقد قلنا إنه من دليلنا لا من دليل المجمع ونحن على هذا الرأي

وأما عبارة نهج البلاغة فهى الآن محل القول ، وسنرفع عليها مصباحاً من مصابيح علماء الدين ليتبين الأزهري والمجمع بنوره الساطع كيف وقعت (حظى) من العبارة فى أحسن مواقعها ، وقامت فى الكلام على رجليها لا على أسابعها !

يقول الامام : (وحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون) فالجملة الأولى مقيسة على الثانية فى الاستعمال إذ الأصل هو ما حظى المترفون به ثم أخذت منه حظوة الآخرين الذين أشبهوهم : فبماذا يحظى المترفون ومن هم ؟ جواب هذا فى قوله تعالى : (واتّبع الذين ظلموا ما أُتْرِفوا فيه[2]) وقوله : (وأخذنا مُترفيهم

(١) قلت : جاءت (سورية) فى المطبوع فى الجريدة بالالف وفى (القاموس) : « سورية مضمومة مختصة اسم للشام » وفى الطبرى ومعجم البلدان وتاريخ آداب العرب الصفحة ٣٥ للأستاذ الرافعى (رحمه الله) مثل ذلك

(٢) قلت : وبقية القول الكريم : (وكانوا مجرمين) وفى (الكشاف) : قرأ أبو عمرو : (واتبع الذين ظلموا) يعنى واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه — اتبع : على وزن افعل ، وبالبناء لما لم يسم فاعله — ويجوز أن يكون المعنى فى القراءة المشهورة أنهم اتبعوا جزاء اترافهم ، وهذا معنى قوى لتقدم الانجاء

بالعذاب[1]) وقوله : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا[2] مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً)

والآن فلنطفئ مصباح علاء الدين فان لم يكن المعنى الذى ترى إليه قد انكشف فى مقالة أخرى سنستمير مصباحاً كشافاً من الأسطول البريطانى »

قلت : فى هذا التفسير تعمُّق ، وهذه هي الجمل التى وردت قبل عبارة (الحظوة) وبعدها ، وفيها البيان الكشاف :

« إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة ، فشاركوا أهل الدنيا فى دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا فى آخرتهم ، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوها بأفضل ما أُكلت ، فحظوا من الدنيا بما حظى به المترفون ، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون ، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح ، أصابوا لدة زهد الدنيا فى دنياهم ، وتيقنوا أنهم جيران الله غداً فى آخرتهم[3] »

وقال الأستاذ الرافعى (رحمه الله : « ثم قال الأزهري : لم يقل أحد قولا فى (حظى بالشىء) إلا العلامة الشيخ ابراهيم اليازجى فى هذا الزمان ، ثم ذكر انتقاد اليازجى استعمال شاعرنا حافظ ابرهيم فى ترجمة البؤساء قال : (فلقاه بعد أيام حجة الاسلام السيد رشيد رضا فقال له — وقد سمعنا قوله — يا شيخ يا شيخ إن الذى خطأته من كلام حافظ ابرهيم هو فى أول صحيح البخارى قال : فبهت الشيخ وترك السيد وهو كاسف البال)

(١) هذا هو المطبوع فى الجريدة والآية الكريمة : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذاهم يجأرون »

(٢) (أمرناهم) من الأمر ، وقيل : أمر مثل آمر أى كثر أو أكثر ، وقرئ : أمرناهم — بتشديد الميم أي جعلناهم امراء وسلطناهم

(٣) قال شارح النهج (ابن أبى الحديد) : « ثم ذكر حال الزهاد فقال : أخذوا من الدنيا بنصيب قوى ، وجعلت لهم الآخرة . ويروى أن الفضل بن عياض كان هو ورفيق له فى بعض الصحارى فأكلا كسرة يابسة ، واغترفا بايديهما ماء من بعض الغدران ، وقام الفضيل فخط رجليه فى الماء ، فوجد برده ، فالتذ به وبالحال التى هو فيها . فقال لرفيقه : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من العيش واللذة لحسدونا »

ولسيد المصريين وإمام المسلمين (الشيخ محمد عبده) — رضى الله عنه — فى شرح قول النهج كلام حسن : « إن المتقى يؤدى حق الله وحقوق العباد ، ويتلذذ بما أتاه الله من النعمة ، وينفق ما له فيما يرفع شأنه ، ويعلى كلمته ، فيعيش سعيداً مترفاً كما عاش الجبابرة ثم ينقلب بالزاد وهو الأجر الذى يبلغه سعادة الآخرة جزاء على رعاية حق نفسه ومنفعتها الصحيحة فيما أوتى من الدنيا ، وهو بهذا يكون زاهدا فى الدنيا وهى مفدقة عليه

وترى ما الذى فهم القراء من هذا ؟ وما هو الذى يُعد من كلام حافظ ابراهيم وفى صحيح البخارى فى وقت مما ؟

لا بأس أن نفيد قراء (البلاغ) فائدة وأن نصحح لحضرة أزهرى ، فان اليازجى لم ينتقد (حظى بالشىء) كما يزعم ، وإنما انتقد استعمال المصدر قال : (ويقولون الحظوى وإنما هى الحظوة) بالهاء ولم يزد على ذلك . ومما أخذ به حافظ فى ترجمة البؤساء أنه يتكلف فى الاستعمال وعد من ذلك قوله : (كأنى أسمع صوتا يقطر منه الدم) قال : وقطران الدم من الصوت مما لا تأنس به الأفهام . وهذه هى العبارة الواردة فى البخارى ولكن حافظ (رحمه الله) لم يأخذها من البخارى وإنما سلخها من (الأغانى) وقد سار[1] شيطانه بعد انتقاد اليازجى ، فلقى بعض أصدقائه فقال له بالحرف : (اليازجى غير مطلع فى العربية)

قال الصديق : ولماذا ؟

قال : انه عاب علىّ : (اسمع صوتا يقطر منه الدم) مع أن العبارة فى الأغانى

قال صديقه : ياحافظ ، اتق الله ، لأن يقول الشيخ : إن فى العبارة مجازا بعيدا خير لك من أن يقول : انك سرقتها من الأغانى ...

أما هل أخطأ اليازجى أو حافظ فهذا كلام آخر)

قلت : ومما نقده الشيخ اليازجى فى (البؤساء) : « فخرجت ربة المنزل بالصمت عن لا ونعم أى لم تقل لا ولا نعم ، ومن هذا القبيل : أحل له ضبّ الضفدع . على أن الضب والضفدع شىء واحد وكلاهما بمعنى الحقد »

ولم يحالف لنا (صديق حافظ) قوله فى نقد اليازجى هاتين العبارتين فحالهما كحال ذاك (الصوت) والقياس يدل أن هناك ثورة وسورة وقولا ...

وقد غنّا حافظ فى الأولى بشارا :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ... ونفى عنى الكرى طيفٌ ألم
وإذا قلت لها : جودى لنا ... خرجت بالصمت عن لا ونعم

وأغار فى الثانية على ربيعة بن مقروم :

وكم من حامل لى ضبّ ضفدع ... بعيد قلبه ، حلو اللسان

(١) سار : غضب ، السورة : : الحدة (المصباح) ومن المجاز : سار الشراب فى رأسه (الأساس)

قال التبريزى فى (شرح الحماسة) : « الضب الحقد . وأضافه إلى الضغن لأن الضغن العسر ، [١] فكأنه حقد عسر» وغزوات حافظ البريطانية الايطالية الفرنسية ... وغاراته التركية ... فى (بؤسائه ولياليه) تخبرنا أنه خليفة سعيد بن حميد فى هذا العصر قال ابن النديم فى (الفهرست) : « سعيد بن حميد كاتب شاعر مترسل عذب الألفاظ ، مقدم في صناعته ، جيد التناول للسرقة كثير الاغارة . لو قيل لكلام سعيد وشعره : ارجع إلى أهلك لما بقى معه شيء[٢] »

* * *

ومن نقد (البؤساء) لليازجى : « استعماله (البرهة) للزمن القصير[٣] و(باهت اللون[٤]) بمعنى كمده و (تبقى عليه كذا[٥]) أى بقي و (ألم تعثر فى طريقك أيها الراهب بغلام[٦]) والمنصوص عليه فى هذا المعنى عثر عليه لا به ، وبقيت (تقضقض) من البرد أى تقفقف[٧] ، ولم يجيء قضقض بهذا المعنى »

قلت : قضقض الشيء فتقضقض كسره فتكسر ، والقضقضة صوت كسر العظام ، وفى شعر أبى تمام :

طلبُ المجد يورث المرء خبلا وهموماً تقضقض الحيزوما

وفى حديث صفية بنت عبد المطلب : (فأطل علينا يهودى ، فقمت إليه فضربت رأسه بالسيف ، ثم رميت به عليهم ، فتقضقضوا) أى انكسروا وتفرقوا كما فى النهاية

وفى ذاك (النقد) : « ولمحتُ بأحد نخذيك (فدعا) والفدع يكون فى القدم لا فى الفخذ ، وهو أن يعوج الرسغ حتى تنقلب القدم إلى إنسيها ، [١] وقيل : هو أن يمشى على ظهر القدم »

قلت : أكثر ما يكون الفدع فى الرسغ من اليد والقدم ، وفي (اللسان) : « الفدع عوج وميل فى المفاصل كلها خلقة أو داء كأن المفاصل قد زالت عن مواضعها ، لا يستطاع بسطها معه»

ومن ذاك (النقد : « عولت على مغادرة ابنتى : أى أجمت وصممت ، وليس هذا معنى اللفظة ، ولكن يقال . عوّل عليه بمعنى اتكل»

قلت : فى (الجمهرة) : عوّلْ علىّ بما شئت أى حملنى ما شئت من ثقلك ، وفى (الصحاح) : عول على بما شئت أى استعن بى ومثل هذا فى (اللسان والاساس) وفى (الأساس) : « ويقال : عول على السفر إذا وطّن نفسه عليه » وقول حافظ يضارعه . وفى الرابعة والثلاثين من المقامات الحريرية : « قال : أتدرى لمَ أعولت ، وعلام عوّلت ؟ » وقد فسر بعض الشراح عول بمعنى عزم واعتمد ، وهو مقصود ابن الحريرى ، ولم ينقد ابن الخشاب هذه اللفظة . وفسر الشريشى عول بمعنى اتكل ، وعبارة المقامة لا تعنى الاتكال

ونقد اليازجى « النجمة للنجم »

قلت : النجمة ضرب من النبت كما فى (الصحاح) والنجمة الكلمة ، ولم أجد النجمة للنجم فى المعجمات المعروفة المطبوعة . غير أنى قرأت فى (التاج) فى مستدركه : « ونجمة الصبح فرس نجيب » ورأيت فى (أقرب الموارد) : « النجمة النجم وهى أخص منه » وقد جاء هذا بعد تفسير : (علم النجوم ، نجوم الأخذ ، فلان ينظر فى النجوم) فغير العارف يظن أن النجمة مثل النجم . والأصل لما فى (أقرب الموارد) هو فى (النهاية) : « ومنه حديث جرير : بين نخلة وضالة ونجمة وأثلة . النجمة أخص من النجم وكأنها واحدته كنبتة ونبت » وروى (اللسان) هذا الكلام فنقل صاحب (أقرب الموارد) منقوله ، ورتبه كما رتّب ليضل من يطالع معجمه . والشيخ سعيد الشرتونى فاضل كبير ، وله مصنفات حسنة ، ومقالات متقنة ، لكن معجمه (أقرب الموارد) لا يوثق به ، فقد تكردست فيه الأغلاط تكردسا

الاسكندرية (***)

---

(١) فى (اللسان) : ضغن الدابة عسرها والتواؤها . وفى (الأساس) : وقناة ذات ضغن : فيها اعوجاج والتواء

(٢) وفى (الفهرست) : كان يدعى أنه من أولاد ملوك الفرس ، وله من الكتب كتاب انتصاف العجم من العرب ويعرف بالتسوية ، كتاب ديوان رسائله ، كتاب ديوان شعره

(٣) قلت : فى (الصحاح) : أتت عليه برهة من الدهر أى مدة طويلة من الزمان

(٤) قلت : الباهت من البهتان أو من بهت — كنصر وكرم وعلم — بمعنى دهش وهو غير فصيح . والفصيح بهت — بالبناء لما لم يسم فاعله — فهو مبهوت . ولا يقال باهت ولا بهيت كما فى الصحاح

(٥) قلت : فى (الاساس) تبقاه بمعنى استبقاه

(٦) قلت : فى (اللسان) : عثر على الأمر اطلع وأعثرته عليه أطلعته وفى (الصحاح) : وعثر به فرسه فسقط وعثر عليه أيضا، وفى (الأساس) وعثر الزمان به ، وعثر فى كلامه وتعثر

(٧) قلت : فى (النهاية) : فى حديث سهل بن حنيف : فأخذته قفقفة أى رعدة ، يقال . تقفقف من البرد إذا انضم وارتعد

(١) قلت : فى (الصحاح) : قال الاصمعى : كل اثنين من الانسان مثل الساعدين والزندين والقدمين فما أقبل منهما على الانسان فهو انسى وما أدبر عنه فهو وحشى